الوظيفة الشعرية في نموذج التواصل عند رومان ياكبسون: من المهيمنة إلى مبدأ التكافؤ

د. آدم أيت بنلعسل
جامعة محمد الخامس بالرباط، المغرب
البريد الإلكتروني: adam_aitbenlaassel@um5.ac.ma
معرف (أوركيد): 0009-0002-0934-7986

بحث أصيل الاستلام: ١-١٠-٢٠٢٦ القبول: ٢٧-١٠-٢٠٢٦ النشر: ٣١-١٠-٢٠٢٦

الملخص:

يتناول هذا البحث مكانة الوظيفة الشعرية في تصور رومان ياكبسون للتواصل اللفظي، ويبحث في العلاقة التي تربط تراتب الوظائف اللغوية بالخصائص اللسانية التي ينتظم بها الخطاب الشعري، وينطلق من فرضية أن المهيمنة تحدد موقع الوظيفة الشعرية في بنية الرسالة، وأن إسقاط مبدأ التكافؤ من محور الاختيار على محور التأليف يفسر وجوه انتظامها الصوتي والصرفي والتركيبي والدلالي. ويستند البحث إلى المنهج الوصفي التحليلي حيث جمع بين دراسة المفاهيم في نصوص ياكبسون واختبار قدرتها التفسيرية في الشعر العربي، متخذا من مطلع قصيدة للشاعر أبي طيب المتنبي مجالا لتحليل التوازي التركيبي والقرابة الاشتقاقية والتقابل الدلالي، في ضوء خصائص اللغة العربية ومقام المدح، وأبان تحليل المطلع عن تآزر هذه العلاقات في توجيه الدلالة، وكذا أثر هذا التآزر في تقدم الوظيفة الشعرية على سائر وظائف الخطاب. وتتجلى بذلك قيمة المهيمنة ومبدأ التكافؤ في تفسير الصلة بين وظيفة الرسالة ونظام بنائها، مع استحضار مقام القصيدة وأعراف تلقيها.

الكلمات المفتاحية:

اللسانيات الشعرية، شعرية التواصل، الوظيفة الشعرية، المهيمنة، مبدأ التكافؤ، شعرية النحو.

للاستشهاد/ :Atif için / For Citation أيت بنلعسل، آدم (٢٠٢٦) الوظيفة الشعرية في نموذج التواصل عند رومان ياكبسون: من المهيمنة إلى مبدأ التكافؤ، ضاد مجلة لسانيات العربية وآدابها. مج٧، ع ١٤، ٤٠١- ٤١٩
/ /https://www.daadjournal.com

The Poetic Function in Roman Jakobson's Model of Communication: From the Dominant to the Principle of Equivalence

Adam AITBENLAASSEL
Asst. Prof. Mohammed V University in Rabat, Morocco
E-Mail:adam_aitbenlaassel@um5.ac.ma
Orcid ID:0009-0002-0934-7986

Research Article Received: 01.10.2026 Accepted: 27.10.2026 Published: 31.10.2026

Abstract:

This study examines the place of the poetic function in Roman Jakobson's conception of verbal communication and explores the relationship between the hierarchy of language functions and the linguistic features through which poetic discourse is organized. It proceeds from the hypothesis that the dominant determines the position of the poetic function within the structure of the message, and that the projection of the principle of equivalence from the axis of selection onto the axis of combination accounts for the message's phonological, morphological, syntactic, and semantic organization. Adopting a descriptive-analytical approach, the study combines an examination of the concepts developed in Jakobson's writings with an assessment of their explanatory power in Arabic poetry. It takes the opening lines of a poem by Abū al-Ṭayyib al-Mutanabbī as the basis for analyzing syntactic parallelism, derivational affinity, and semantic contrast, in light of the linguistic characteristics of Arabic and the panegyric context. The analysis reveals how these relationships interact to shape meaning and how their interplay contributes to the predominance of the poetic function over the other functions of discourse. The findings thus demonstrate the value of the dominant and the principle of equivalence in explaining the relationship between the function of the message and its structural organization, while taking into account the poem's context and the conventions governing its reception.

Keywords :

Linguistic poetics; Poetics of communication; Poetic function; The dominant; Principle of equivalence; Poetics of grammar.

تقديم:

اتجه البحث اللساني في الأدب في مستهل القرن العشرين إلى سؤال صاغه رومان ياكبسون (Roman Jakobson) في سياق الشكلانية الروسية: ما الخصائص التي تجعل أثرا لفظيا أدبيا؟ وقد وجد السؤال صياغته المبكرة في مفهوم «الأدبية» (Literariness) الذي ورد في دراسة رومان ياكبسون الروسية عن الشعر الروسي الحديث سنة ١٩٢١، وتتعلق الأدبية في هذا السياق بخصائص صناعة الأثر، أي بطريقة «توزيع الوسائل اللغوية وربط بعضها ببعض حتى يصبح انتظامها عنصرا من عناصر العمل الفني»[1]، ومن هذه القضية نشأ اهتمام منهجي بدراسة ما تصنعه اللغة داخل النص، وبالبحث في العلاقات القابلة للوصف بين أصواته وأبنيته ودلالاته.

وقد اتخذ هذا الاهتمام صورة أشد اتساعا في المحاضرة التي ألقاها ياكبسون سنة ١٩٥٨ ضمن المؤتمر الدولي حول «الأسلوب في اللغة» بعنوان: «اللسانيات والشعرية» (Linguistics and Poetics)، إذ وضع ياكبسون الوظيفة الشعرية (poetic function) داخل تصور للحدث اللفظي تؤلفه ستة عوامل تقابلها ست وظائف، وضمن هذا الإطار تتجلى قضية نظرية تستحق الدراسة، وهي: كيف يمكن لرسالة تنتمي إلى التواصل أن تجعل تنظيمها الخاص مركزا للاهتمام، مع استمرار صلاتها بالمرسل والمتلقي والسياق؟ ويرتبط الجواب بمفهوم «المهيمنة» (the dominant) الذي يفسر ترتيب المكونات داخل البناء، ثم بمبدأ «التكافؤ» (equivalence) الذي يعين صورة مخصوصة لهذا البناء على مستوى العلاقات اللسانية.

تتمثل إشكالية البحث في تحديد الصلة النظرية بين موقع الوظيفة الشعرية في نظام التواصل وبين مبدأ انتظامها اللساني، أي: كيف تكون الوظيفة الشعرية مهيمنة، وكيف يصبح التكافؤ بين الوحدات أساسا لتأليف السلسلة اللفظية؟ ويتطلب تناول هذه القضية التمييز بين الشعرية والأدبية والوظيفة الشعرية، وفحص دلالة التراتب الوظيفي، وتحديد ما يتيحه التحليل الصوتي والصرفي والتركيبي والدلالي من قرائن على انتظام الخطاب.

وينطلق البحث من فرضية أن المهيمنة والتكافؤ مفهومان يعملان في مستويين مختلفين من التفسير؛ يبين الأول علاقات الصدارة والتبعية بين مكونات الأثر ووظائف الرسالة، ويصف الثاني قيام التأليف على تماثلات وتناسبات وتقابلات تكتسب قيمتها

(1) Language in literature: 62-63.

في السياق. ومن ثم نقصد بالانتقال الوارد في العنوان تقدم البحث من تحديد الوضع الوظيفي إلى تحليل التجسد اللساني.

١- الأدبية والشعرية في الأفق الشكلاني:

١-١- الأدبية ومسألة موضوع البحث:

وضع ياكبسون في كتابه «أحدث الشعر الروسي: مخطط أول» (Новейшая русская поэзия: набросок первый) الصادر سنة ١٩٢١ مصطلح الأدبية (литературность) في موضع مفصلي من تحديد موضوع علم الأدب[1]. فقد أتاح هذا التصور انتقالا من جمع الأخبار عن الأديب ومصادره إلى فحص ما ينشأ عن صياغة الكلام في بناء فني محدد. ويتصل ذلك بمبدأ عام في الشكلانية الروسية هو تحليل الإبداع الأدبي من زاوية إجراءاته وعلاقاتها المتغيرة، بحيث تصير الأدبية سؤالا عن صنعة النص ووظائف مكوناته، وتعين هذه الخلفية على فهم موقع الشعرية (poetics) عند ياكبسون في مرحلة لاحقة.

وتدل دراسة «ما الشعر؟»، التي ظهرت بالتشيكية بعنوان (Co je poesie?) سنة ١٩٣٤، على أن الوعي بتاريخية الظاهرة الشعرية وتحول أساليبها كان حاضرا ضمن هذا المشروع اللساني. فقد بين ياكبسون أن تاريخ الأدب يشهد على التغير المستمر للإجراءات الشعرية، وأن تعريف الشعر بكونه مجموعة ثابتة من الوسائل يغفل ما يطرأ على استعمالها من تحول، وذلك لأن القيمة الشعرية لهذه الأساليب تتحدد في ضوء الأعراف الأدبية السائدة والعلاقات التي تنشئها داخل الأثر؛ فقد ينتقل الإجراء من موقع لافت إلى توظيف مألوف بتعاقب المدارس وتبدل الأذواق، وتتغير تبعا لذلك وظيفته الفنية وإن احتفظ بخصائصه الصوتية أو التركيبية. وبالتالي تقتضي دراسة الأثر الأدبي مراعاة السياق التاريخي الذي تنتظم فيه وسائله الفنية، وتتبع ما يطرأ على وظائفها وعلاقاتها من تغير[2].

يوضح مثال التكرار هذه القضية: فقد يثبت صيغة يراد حفظها في التعليم، أو يشدد حجة في الخطابة، أو يعقد في القصيدة صلات بين وحدات متباعدة تزداد دلالتها بما

(1) новейшая русская поэзия: 11.
(2) Huit questions de poétique : 33-34.

يعود منها ويتحول. وتكمن قيمته في الوظيفة التي يؤديها داخل الرسالة والعلاقات التي يعقدها مع غيره. وفي هذا الموضع يتهيأ مفهوم المهيمنة ليشرح طريقة اكتساب وسيلة بعينها وزنها التنظيمي في سياق مخصوص.

ويستتبع هذا الموقف تمييزا بين وجود الخاصية في النص وبين تفسير أثرها: فقد يكون التشابه الصوتي أمرا يسيرا في اللغة، ثم تتغير قيمته حين يوضع في موقع تتكرر فيه قرائن أخرى من الوزن والنحو والدلالة، وعلى التحليل أن يحدد موضع العلاقة وحدود عملها قبل أن يستخلص منها حكما في الشعرية.

١-٢- الشعرية والأدبية والوظيفة الشعرية: ضبط المفاهيم

تُعنى الشعرية في بحث ياكبسون الموسوم بعنوان «اللسانيات والشعرية» «Linguistics and Poetics» بالمشكلات المتصلة بالبناء اللفظي الذي يضفي على الرسالة صفتها الفنية، وقد وضعها في دائرة البحث اللساني نظرا إلى مادتها اللفظية، فاتحا مجالا لتحليل العلاقات بين المستويات الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية. ويستدعي ضبط توظيف المصطلح تمييز الشعرية بوصفها حقلا للبحث (poetics) من «الوظيفة الشعرية» (poetic function) التي تعد اتجاها من اتجاهات الحدث اللفظي، ومن «الأدبية»(Literariness) التي تتعلق بخصائص الأثر الأدبي في النظرية الشكلانية(١).

ويفيد هذا التمييز في بناء موضوع الدراسة، فالشعرية تبحث عن المبادئ التي تنتظم بها الصناعة اللفظية، والوظيفة الشعرية تسمي اتجاه الاهتمام إلى الرسالة من جهة هيئتها، أما الأدبية فترتبط بخصوصية ذلك الانتظام في العمل الذي يدرس أدبيا. وتوجد بين هذه المفاهيم الثلاثة علاقة ترابط وتكامل وانسجام، بيد أن توظيف أحدها موضع الآخر يربك الحدود بين الحقل العلمي والوظيفة اللغوية والخاصية الأدبية. وبذلك تصبح الوظيفة الشعرية موضوعا للتحليل في القصائد والأمثال والشعارات وغيرها من الصيغ التي تستثمر تنظيم اللفظ لأغراض متباينة.

وتضفي أطروحة يان موكاروفسكي (Jan Mukařovský) في «الإبراز» (foregrounding) على هذا التحديد أفقا بنيويا، إذ يتقدم بعض عناصر الخطاب إلى واجهة الإدراك في علاقتها بخلفية تحكمها الأعراف المألوفة. وتكتسي عملية الإبراز

(1) Language in literature: 63.

انتظاما حين تتضافر وسائل متعددة في اتجاه واحد، وتتشكل داخل العمل الأدبي علاقات صدارة وتبعية. ويتقاطع هذا التصور مع مفهوم المهيمنة من جهة عنايته بتوزيع الأهمية بين العناصر، مع مراعاة السياق المختلف الذي نشأ فيه كل مصطلح[1].

٢- المهيمنة وتنظيم البنية الفنية:

٢-١- من العنصر البؤري إلى وحدة الأثر:

عرف ياكبسون المهيمنة (The Dominant) في نص مستمد من محاضرات ألقاها بالتشيكية في برنو سنة ١٩٣٥، ونشر لاحقا بالإنجليزية بعنوان «The Dominant»، بكونها العنصر البؤري الذي يحدد عمل المكونات الأخرى ويعيد تشكيل علاقاتها ويكفل تماسك البنية. ويرتبط هذا التعريف بتصور العمل الفني نظاما من القيم متفاوتة الرتبة، تتقدم فيه وسيلة أو خاصية لاكتساب وظيفة توجيهية. ويعين المفهوم على تحديد ما يتوقف عليه انتظام الأثر في زمن أو جنس أو تجربة فنية معينة [2].

وتتسع دلالة المهيمنة في المنجز الياكبسوني لتشمل تحولات النظام الأدبي؛ فقد تظل عناصر من الوزن والقافية والتنغيم حاضرة في مرحلتين، ثم تتغير منزلتها حين يتقدم أحدها ويصير ضابطا لبقية العناصر. ففي شعرية عصر ما يكون الإيقاع معيارا راجحا لتنظيم الخطاب، بينما تسمح أعراف أخرى بتقدم التنغيم أو بتبدل العلاقة بين الإيقاع والنحو. وعلى هذا الأساس يظهر التحول الأدبي في إعادة توزيع وظائف الوسائل داخل نسق من القيم، وهو توزيع تفرض دراسته العودة إلى النصوص والتقاليد الشعرية التي تعمل فيها.

وحين يستعير البحث مفهوم المهيمنة لتحليل الوظائف اللسانية، ينبغي أن يحفظ دلالته التنظيمية العامة؛ فالمهيمنة مبدأ في تراتب المكونات، والوظيفة الشعرية وظيفة من وظائف اللغة. ويجوز الحديث عن هيمنة الوظيفة الشعرية حين تكون أولويتها مؤثرة في بنية الرسالة وتوجه وسائلها، أما وصف تلك الهيمنة فيحتاج إلى شواهد تقيم الصلة بين الهيئة اللفظية ومعناها وعملها في مقام الخطاب، وبهذا يتهيأ الانتقال من نظرية بناء الأثر إلى نظرية وظائف التواصل.

وتجدر الإشارة أن لهذا المفهوم بعدا تاريخيًّا يقتضي الحذر من استنتاج الهيمنة

(1) Chapters from the History of Czech Functional Linguistics: 44-45.
(2) Language in literature: 42-43.

من مثال واحد، فصدارة خاصية في بيت من الشعر تحدد خصائص تنظيمه الموضعي، بينما يتطلب الحكم على نسق شعري أو مدرسة فنية مدونة من الشواهد تقاس فيها وجوه الثبات والتغير، ويستقيم البحث الحالي مع هذا الشرط حين يصرح بأن تطبيقه على المتنبي اختبار نصي محدود النطاق.

٢-٢ المهيمنة في التراتب الوظيفي:

تتضافر وظائف اللغة في الرسائل الفعلية بنسب متفاوتة، وترتبط صورة كل رسالة بالوظيفة التي تحظى بالصدارة(١)، وقد نص ياكبسون في «Linguistics and Poetics» على ضرورة «تناول مشاركة الوظائف التابعة إلى جانب الوظيفة الغالبة»(٢). وبذلك تتسع فائدة النموذج من تسمية الوظائف إلى تعليل أولوية إحداها في السياق؛ فالقصيدة الغنائية تستطيع أن «تقيم بناءها على انتظام الصيغ والأصوات، وأن تفسح في الوقت نفسه مجالا لانفعال المتكلم وإحالاته ومخاطباته» (٣).

وتتجلى أهمية هذا المنظور العلائقي في دراسة ليندا ووه (Linda R. Waugh) عن الوظيفة الشعرية في نظرية ياكبسون؛ إذ يجري تحديد الوظيفة داخل شبكة من العوامل والوظائف المتبادلة التأثير (٤). وتحتاج هذه القراءة إلى إضافة منهجية: فالمهيمنة حكم تحليلي يستند إلى منهجية عمل الشواهد داخل البنية، وليس منزلة تمنحها تسمية الجنس الأدبي سلفا، وبذلك تصبح المهيمنة مفصلا بين السؤال عن وظيفة الرسالة وبين السؤال عن طريقة صنعها.

٣- الوظيفة الشعرية في نموذج التواصل:

٣-١- عوامل الحدث اللفظي:

يصف ياكبسون التواصل اللغوي من خلال ستة عوامل: مرسل (addresser) يوجه رسالة (message) إلى مرسل إليه (addressee)، وسياق (context) تتعلق به الإحالة، وسنن أو شفرة (code) يجري بوساطتها التفاهم، واتصال (contact) يجمع القناة المادية والصلة النفسية التي تتيح التواصل واستمراره. وتتحدد هذه العوامل

(1) Language in literature: 66.
(2) Language in literature: 70.
(3) Language in literature: 70.
(4) The Poetic Function in the Theory of Roman Jakobson: 58.

بعضها ببعض في الرسالة المتحققة؛ فالمقصود من هذا النموذج ضبط جهات العلاقة التي يتجه إليها الخطاب، وصولا إلى تعيين الوظيفة التي تحتل موقع الصدارة في استعمال بعينه[1].

ويقتضي عرض العوامل مراعاة الصياغة التي وضعها ياكبسون، فالسياق عنده قابل للإدراك لدى المرسل إليه، والإحالة إليه شرط في عمل الرسالة؛ وقد أشار إلى ما يثيره استعمال لفظ «المرجع» (referent) من التباس اصطلاحي، ويشمل الاتصال (contact) استقرار الصلة النفسية بين طرفي التبادل، إلى جانب القناة الفيزيائية، أما السنن (code) فشرطه الاشتراك الكلي أو الجزئي بين المتواصلين؛ وقد يتحقق في لغة أو سجل أو نظام اصطلاحي محدود بحسب المقام. ويقابل هذه العوامل ستة اتجاهات وظيفية، ترد تسمياتها في النص الإنجليزي على النحو الآتي:

جدول (١): عوامل التواصل والوظائف التي تقابلها في نموذج ياكبسون.

عامل التواصل	الوظيفة المقابلة	مركز الاهتمام
المرسل (addresser)	الانفعالية (emotive)	توضيح موقف المرسل من الخطاب.
المرسل إليه (addressee)	التأثيرية (conative)	توجيه الرسالة إلى المخاطب.
السياق (context)	المرجعية (referential)	الإخبار عما تحيل إليه الرسالة.
الاتصال (contact)	الانتباهية (phatic)	إقامة الصلة أو اختبار استمرارها.
السنن (code)	الميتا لسانية (metalingual)	التحقق من دلالة الشفرة المشتركة.
الرسالة (message)	الشعرية (poetic)	إظهار تنظيم الرسالة وعلاقات وحداتها.

يلاحظ من خلال هذا الجدول أن المقابلة بين العوامل والوظائف توضح فرقا منهجيا بين شروط الحدث اللفظي واتجاهات توظيفه، فكل عامل يوفر تعيين وجه من وجوه الرسالة، بينما تصف الوظيفة الغالبة ما يوجه تنظيمها في المقام المعين، ومن هذه الزاوية تتصل الوظيفة الشعرية بالرسالة بكونها عاملا من عوامل التواصل؛ أما موقعها من الوظائف الأخرى فيتحدد داخل الترابط الفعلي بين تلك العوامل.

(1) Language in literature: 66.

٣-٢- وظائف الإحالة والتعبير والتوجيه وإقامة الاتصال:

تتجه الوظيفة الانفعالية أو التعبيرية (emotive / expressive) إلى المرسل، فتظهر في التنغيم وصيغ التعجب وطرائق اختيار المعجم، وقد تصوغ موقفا متخيلا أو مؤدى في سياق فني، وتتجه الوظيفة التأثيرية أو التوجيهية (conative) إلى المرسل إليه، وتتجلى في النداء والأمر والالتماس وصيغ الحث. وتبرز الوظيفة المرجعية (referential) حين ينتظم الخطاب حول سياق أو موضوع يُخبَر عنه؛ ويظل اختيار طريقة الإخبار جزءا من طريقة تقديم المرجع وتوجيه النظر إليه.

وتتصل الوظيفة الانتباهية (phatic) بافتتاح الصلة بين المتخاطبين واختبارها وتمديدها، كما في التحية واستفهام التحقق من السماع. أما الوظيفة الميتا-لسانية (metalingual /metalinguistic) فوجهتها السنن المشترك؛ وتظهر حين يشرح المتكلم لفظا، أو يسأل عن معناه، أو يراجع الاتفاق على دلالة علامة. وتفيد هذه الوظائف في تحديد ما تقوم به الرسالة في مقام التواصل قبل تناول تنظيمها الشعري.

٣-٣- موقع الوظيفة الشعرية

حين يتجه الاهتمام إلى الرسالة من جهة صياغتها يتحقق ما يسميه ياكبسون الوظيفة الشعرية (poetic function). ويتصل هذا الاتجاه بملموسية العلامة اللفظية، وبالعلاقات التي تجعل اختيار صوت أو كلمة أو ترتيب تركيب مؤثرا في بناء الدلالة. ويتجلى عندئذ السؤال عن صلة هيئة الخطاب بما يؤديه، وكيف تساعد الحدود الصوتية والتماثلات الصرفية والتقابلات النحوية في جعل ألفاظ الرسالة قابلة للمقارنة فيما بينها.

وتقتضي دراسة هذه الوظيفة انتباها إلى مشاركتها في مختلف أجناس الخطاب؛ فالأمثال والإعلانات والشعارات قد تستثمر القافية أو التجانس أو التوازي، في حين تجمع القصيدة بين العناية بالبناء اللفظي ووظائف الإحالة والتعبير والتأثير. وتحيل هذه المشاركة إلى درجات الهيمنة وإلى موقع كل إجراء في البنية، وتمنع الاكتفاء بوجود صوت مكرر أو صيغة متناظرة دليلا كافيا على القيمة الفنية.

٣-٤-أولوية الرسالة وآثارها الدلالية:

يرتبط وصف الوظيفة الشعرية بعبارة ياكبسون عن توجيه الانتباه إلى الرسالة من حيث هي رسالة. وقد حمل هذا الرأي قراءات تفصل بين داخل النص وخارجه؛ إلا

أن موضعه في نظرية التواصل يدل على استمرار عمل العوامل الخمسة الأخرى في الرسالة نفسها. والأدق أن تتبع القراءة أثر انتظام الألفاظ في توجيه الإحالة وفي توزيع القيم التعبيرية، ثم تميز بين وجود إجراء لغوي وبين وظيفته في البناء.

ويفصل ياكبسون بين مجال الشعر بكونه يمثل ممارسة فنية متعددة الوظائف، وبين الوظيفة الشعرية التي يمكن أن تتجلى خارج هذه الممارسة. فالوظيفة الشعرية تكتسب مقام المهيمنة في الأثر الشعري حيث توجه تنظيمه، وتمارس عملا معاونا في استعمالات لفظية أخرى[1]. وتتضح أهمية هذا الفصل حين يتم البحث عن المبدأ الذي يجعل التنظيم خاصية بنائية، وهو ما تتيحه صياغته لمحوري الاختيار والتأليف [2].

٤-مبدأ التكافؤ والآليات اللسانية للشعرية:

٤-١-الاختيار والتأليف: علاقات بديلة وعلاقات مجاورة:

ينطلق ياكبسون من عمليتين تنظمان إنتاج الكلام: الاختيار (selection) الذي تجري فيه المفاضلة بين وحدات يمكن أن تتبادل موقعا، والتأليف (combination) الذي يضع الوحدات المختارة في سلسلة متجاورة. ويرتبط الاختيار بالتشابه (similarity) والاختلاف (dissimilarity) والترادف (synonymy) والتضاد (antonymy)، بينما تقوم علاقات التأليف على التجاور (contiguity) [3]، ويتداخل المحوران في كل خطاب، بيد أن تنظيم الرسالة الشعرية يبين وظيفة جديدة للعلاقات التي تضبط الانتقاء؛ فمن بين أسماء متقاربة يستطيع المتكلم أن ينتقي واحدا، ثم يضمه إلى فعل في سلسلة تخضع لنسق اللغة، ويتغير أثر الجملة تبعا لقيمة اللفظ المختار وموضعه من الكلمات الأخرى. وعندما تتكرر هيئة الاختيار أو تظهر الألفاظ المنتقاة في مواضع متناظرة داخل النص الأدبي، تنشأ إمكانات قياس بين وحدات السلسلة؛ فيصبح التشابه الصوتي أو النحوي أو الدلالي جزءا من مبدأ تكوين الرسالة.

٤-٢-إسقاط مبدأ التكافؤ على محور التأليف:

يحدد ياكبسون السمة اللسانية للوظيفة الشعرية بإسقاط مبدأ التكافؤ (principle of equivalence) من محور الاختيار (axis of selection) على محور التأليف (axis of combination). فالوحدات التي يتيح النسق اختيارها وفق علاقات التشابه

(1) Language in literature: 69-70.
(2) Language in literature: 71.
(3) Language in literature: 71.

والاختلاف تدخل عند انتظامها في الخطاب في صلات تجعل بعضها مقياسا لبعض. ويصير التكافؤ مبدأ مؤسسا للسلسلة (constitutive device of the sequence) حين تنتظم تلك الصلات في بناء قابل للملاحظة والتفسير، كما يقع في الوزن والقافية والتوازي التركيبي [1].

يقصد بالتكافؤ في هذا السياق قيام علاقة محددة بين وحدتين أو أكثر، وقد يكون أساسها قدرا مشتركا من الأصوات أو هيئة صرفية أو بنية نحوية أو موقعا إيقاعيا، ثم تنعقد حول ذلك الأساس فروق دلالية أو تقابلات معنوية. لذلك نعتمد لفظ «التكافؤ» مقابلا لـ equivalence، وهو اختيار اصطلاحي تستقيم معه أيضا ترجمة «التعادل» متى حدد المقصود منها. وتستلزم الدراسة تعيين مستوى التكافؤ ووجه علاقته بالدلالة في كل مثال، بدل إطلاق الاسم على كل تماثل يظهر في النص.

تصلح القافية مثالا أوليا؛ فهي تجمع كلمات متباعدة في السياق الدلالي داخل موقع صوتي متكرر، فتدعو إلى تقابلها وتلمس وجوه اتفاقها واختلافها. ويتيح التوازي النحوي كذلك توزيع ألفاظ متنوعة في خانات متقاربة، وتتجلى المقابلة الدلالية حين يتكرر بناء واحد لعرض قيم متضادة. وتكتمل الحجة التحليلية حين تشرح وظيفة هذه العلاقات في صناعة المعنى، ويبين ما الذي يضيفه الانتظام إلى القضية التي يؤلفها الخطاب.

وإذا كان التكافؤ صالحا لوصف علاقات متباعدة في مستويات اللغة، فإن قيمة كل علاقة تتوقف على موضعها من البنية العامة. ويفيد التمييز في هذا الإطار بين انتظام يقاس في مستوى واحد كتشابه النهايات الصوتية، وانتظام مركب تتساند فيه القافية والبنية النحوية والقرابة المعجمية؛ فالنوع الثاني أقدر على إقامة الحجة متى اتصل بقرائن المعنى.

٤-٣- التوازي واتساع مستوياته:

يعد التوازي (parallelism) من أبرز الصور التي يتجسد بها التكافؤ في النص. وقد أفاد ياكبسون من ملاحظة جيرارد مانلي هوبكنس (Gerard Manley Hopkins) بشأن اتساع حضور التوازي في الشعر[2]، ثم وصلها ببحثه في تقابلات الصيغ والتراكيب والصوت والمعنى. وتندرج ملاحظاته ضمن تقليد أقدم عرف التوازي في الشعر

(1) Language in literature: 71.
(2) The Journals and Papers of Gerard Manley Hopkins: 84.

العبري وفي فنون أدبية متعددة، بينما تكمن إضافة الصياغة اللسانية في تعيين العلاقات التي تجعل الوحدات متقابلة داخل السلسلة[1].

ويمكن وصف التوازي على مستويات تتداخل في الخطاب الواحد: منها المستوى الصوتي والمستوى الصرفي والمستوى النحوي والمستوى المعجمي؛ فيتجلى في تناسب المقاطع والنبر والقافية، وفي تقابل الأبنية الصرفية والمواقع النحوية، وفي تكامل العلاقات الدلالية التي تصل بين الألفاظ المتناظرة [2].ويؤدي الانتظام الإيقاعي على وجه الخصوص إلى توليد توقعات لدى القارئ، وتكتسب مخالفة تلك التوقعات أثرا ملحوظا في إدراك البنية الشعرية[3].

وتتجلى أهمية تداخل هذه المستويات حين تتجاوب العلاقات الصوتية والإيقاعية مع انتظام التراكيب وتوزيع الدلالات؛ فقد يشغل تركيبان متناظران موقعين متقابلين في البناء الشعري، وتتآلف عناصرهما الصوتية والنحوية مع اختلاف المعاني التي يحملانها. ويوفر هذا التنظيم إدراك العلاقات القائمة بين أجزاء القصيدة، وما ينشأ عن التماثل والتقابل من دلالات. وتظل إمكانات التوازي قائمة في النثر والخطاب الحجاجي بدرجات أخرى من الانتظام؛ ومن شأن اختلاف الجنس الخطابي أن يغير وظيفتها وحجم الاعتماد عليها [4].

٤-٤-شعرية النحو ونحو الشعر:

يتقصى ياكبسون في بحثه الموسوم بعنوان: «شعر النحو ونحو الشعر» (Poetry of Grammar and Grammar of Poetry) منزلة المقولات النحوية في صناعة الأثر الفني. فالضمير والزمن والعدد والجنس والتعريف والبناء للمعلوم والمجهول تقدم خيارات تنظم منظور الخطاب وتوزيع أدواره[5]. وتتضح قدرتها الشعرية حين تتكرر صيغة أو تقابل أخرى، أو حين ينتظم التحول من ضمير إلى ضمير ومن زمن إلى زمن في مواضع ذات بناء متناظر. ويتجاوز أثر هذه المقولات حدود الصحة الإعرابية إلى صلاتها بالمعنى والإيقاع [6].

(1) Language in literature: 82-83.
(2) Language in literature: 83.
(3) Language in literature: 77.
(4) The Poetic Function in the Theory of Roman Jakobson: 63.
(5) Language in literature:128.
(6) Language in literature: 121-122, 127-128.

وتساعد اللغة العربية بما فيها من تصريف واشتقاق وإعراب على اختبار هذه القضية. فاختلاف صيغ الجمع أو المشتقات وتقديم شبه الجملة ومواضع الفاعل وارتباط الضمائر بمراجعها قد تؤلف جميعها علاقات يتولد منها أثر دلالي خاص. ويفترض التحليل تحديد هيئة كل بنية وصفا دقيقا، ثم المقارنة بين المواضع المناظرة، وصولا إلى تعليل دور الفرق النحوي أو الصرفي في حجاجية النص وشعرية إيقاعه.

وضمن هذا الإطار يشير «شعر النحو» إلى الإمكانات الفنية التي تصنعها المقابلات بين الصيغ والمقولات، بينما يعنى «نحو الشعر» بوصف انتظام تلك المقابلات في العمل الأدبي. وتظهر ثمرة الجمع بين الطرفين حين يجري الانتقال من تعيين الصيغة النحوية إلى الكشف عن نظام من العلاقات يستثمرها ويوجه أثرها في القراءة، فالعناية بالنحو في هذا السياق طريق إلى بيان منهجية عمل الخطاب الأدبي.

٥-اختبار المهيمنة والتكافؤ في مطلع قصيدة للمتنبي:

نختبر هذا التصور في البيتين الأولين من قصيدة المتنبي التي أنشدها في مدح سيف الدولة بمناسبة وقعة الحدث. ويتيح المطلع مادة غنية للتوازي الاشتقاقي والتركيبي ولتقابل القيم، على أن التحليل ينحصر في ما تدل عليه البنية اللفظية للبيتين، ويستأنس بمقام المدح في بيان وظيفتها:

عَلَى قَدْرِ أَهْلِ الْعَزْمِ تَأْتِي الْعَزَائِمُ وَتَأْتِي عَلَى قَدْرِ الْكِرَامِ الْمَكَارِمُ

وَتَعْظُمُ فِي عَيْنِ الصَّغِيرِ صِغَارُهَا وَتَصْغُرُ فِي عَيْنِ الْعَظِيمِ الْعَظَائِمُ (١)

يتألف البيت الأول من قضيتين متوازيتين في البنية المنطقية: منزلة «العزائم» على قدر «أهل العزم»، ومنزلة «المكارم» على قدر «الكرام». وقد صيغ هذا التناسب مع اختلاف محسوب في ترتيب المكونات. ففي الشطر الأول تتصدر شبه الجملة «على قدر أهل العزم»، ثم يليها الفعل المضارع «تأتي» وفاعله «العزائم». وفي الشطر الثاني يتقدم الفعل «وتأتي» على شبه الجملة «على قدر الكرام»، ثم يتأخر الفاعل «المكارم». وينشأ التوازي من ثبات العلاقات العامة مع تحريك موضع الفعل وشبه الجملة؛ وهو شاهد على أن التكافؤ يتحقق من خلال التناظر الذي يحتمل الاختلاف في الترتيب.

ويدعم التقارب الاشتقاقي هذا الانتظام. فالزوج «العزم/العزائم» يعود إلى الجذر «عزم»، وتنتسب «الكرام/المكارم» إلى الجذر «كرم»، مع اختلاف الصيغ الصرفية

(١) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري: ٣/٣٧٨–٣٧٩.

والقيمة المعجمية داخل كل زوج. ويجمع لفظ «العزائم» بين دلالة الإرادة وما يتصل بها من أعمال، بينما توحي «المكارم» بمحاسن الأفعال وفضائلها؛ فتسند القرابة الاشتقاقية صلة الفاعل الأخلاقي بأثر فعله. ويأتي الروي الميمي في ختام الشطرين ليقوي المقارنة الصوتية بين «العزائم» و«المكارم»، فتلتقي العلاقات الصوتية والصرفية والدلالية في موضع واحد.

أما البيت الثاني فيبني المعنى على مقابلة أشد انتظاما؛ فالفعلان «تعظم/تصغر» يفتتحان الشطرين، ويتقابل «الصغير/العظيم» داخل شبه الجملة «في عين»، وتأتي «صغارها/العظائم» في موقع الفاعل المؤخر. وتتأسس الدلالة على اختلاف المنظور: يعظم القليل في عين صغير النفس، ويهون العظيم في عين عظيمها. وتتكرر الإحالة إلى «العين» بوصفها أداة نظر وتقويم، فتنتظم شبكة من التقابلات بين قدر الشيء وقدر الناظر. ويظهر تكرار الجذرين «صغر/عظم» كيف يصبح التضاد نفسه قاعدة لتأليف الخطاب.

وتتكامل البنيتان في المطلع؛ فالبيت الأول يقيس الأفعال إلى أقدار أصحابها، ويقيس الثاني الأحكام إلى مقامات الناظرين. وهكذا تنتقل الحكمة من مبدأ النسبة بين الفعل وفاعله إلى مبدأ النسبة بين الفعل ومقومه. وتنهض هذه الصلات بدور حجاجي في مطلع مدحي يمهد لتفخيم شأن سيف الدولة. وعلى مستوى الوظائف يظل الإخبار بحكمة عامة حاضرا، وتؤدي نبرة التقويم والإعجاب أثرها التعبيري، بينما تنتظم هذه العناصر داخل بناء توازي وتقابل يجعل الوظيفة الشعرية متقدمة في الهيئة اللفظية للمطلع.

ويظهر أثر إعادة الترتيب خاصة في البيت الأول: فافتتاح الشطر بعبارة «على قدر» يجعل مقياس القيمة حاضرا قبل فعل المجيء، بينما يعيد الشطر الآخر تقديم الفعل ثم يستدرك معيار القيمة. وتكسب هذه المراوحة المعنى حركة في الإلقاء، وتخلق تواترا بين قاعدة النسبة وحصول الفعل.

٦-مردود النموذج وحدود توظيفه:

٦-١-من وصف الإجراء إلى تعليل عمله:

يوفر مبدأ التكافؤ جمع ما توزعه التصنيفات البلاغية بين جناس وتكرار ومقابلة وحسن تقسيم في إطار وصفي يبحث عن علاقة الوحدات داخل السلسلة، كما تمكن

المهيمنة من تحليل تلك العلاقات من جهة تنظيمية، فتسمح بالسؤال عن مقدار ما تؤديه في بناء الأثر. وتبدو فائدة الجمع بينهما واضحة في مطلع المتنبي؛ إذ يتساند الاشتقاق والروي والتقديم والتأخير والتضاد لتأسيس حكم عن مراتب الناس والأفعال.

وتفيد قراءة ليندا ووه (Linda R. Waugh) في إبراز الطبيعة العلائقية لوظائف ياكبسون؛ فهي تفسر حضور الوظيفة الشعرية في استعمالات واسعة، وتعيد بحث خصوصية الشعر إلى تراتب الوظائف وطريقة انتظام وسائلها [١]. وتكتسب هذه المقاربة قيمة خاصة عند تحليل الشعر العربي بما له من وفرة في الصيغ المشتقة وحركة في التقديم والتأخير وصلات بين الإعراب والدلالة؛ على أن لكل نظام لغوي طرائقه التي ينبغي اختبارها في النصوص قبل استخلاص النتائج.

٦-٢-شروط الاستدلال وحدود التجريد:

يثير التحليل اللساني سؤالا يتصل بوزن الشواهد: ما الذي يجعل تكرارا ما أساسيا في بناء القصيدة، ويجعل آخر عارضا قليل الأثر؟ يستطيع التحليل استخراج عدد كبير من التناظرات، لكن اختباره العلمي يبدأ حين يربطها بوظائف ظاهرة ويوازن بين القرائن المتاحة. وفي هذا السياق تنشأ ضرورة البحث في وحدة النص ومقامه، وفي الأعراف التي تمنح بعض الأساليب قيمة شعرية خاصة داخل تقليد بعينه.

وقد ناقش جوناثان كولر (Jonathan Culler) تحليلات ياكبسون الشعرية من جهة الصلة بين اكتشاف العلاقات وتفسير قيمتها. فالقارئ الخبير يمكنه أن يلاحظ تماثلات كثيرة، لكن القراءة النقدية مطالبة ببيان ما يسوغ ترجيح علاقة على غيرها، وكيف يتصل ذلك بقدرة النص على إنتاج الدلالة[٢]. ويوجه هذا التنبيه التحليل نحو بناء حجة تتبين أثر انتظام الصيغ في فهم القصيدة، مستفيدة من مفهوم الكفاية الأدبية ومن شروط التأويل [٣].

ويظهر حد آخر عند مقابلة النموذج بمشروع دل هايمز (Dell Hymes) في إثنوغرافيا التواصل (ethnography of communication). فقد وسع هذا

(١) The Poetic Function in the Theory of Roman Jakobson: ٥٨-٥٩.

(٢) Structuralist poetics: structuralism, linguistics, and the study of literature: ٦٥-٧٣.

(٣) Structuralist poetics: structuralism, linguistics, and the study of literature: ١١٣-١١٤, ١٢٥-١٢٧.

المشروع دراسة الحدث اللفظي نحو وصف المشاركين والظروف والأغراض والأعراف وأنواع الأداء. ويظل نموذج ياكبسون صالحا لتعيين اتجاهات الوظائف في الرسالة، بينما تسمح المقاربة الإثنوغرافية بإضاءة شروط تداولها داخل الجماعات، ويتكامل المستويان حين يتصل السؤال بوظيفة النص في الثقافة ومقام تلقيه[1].

تتطلب هذه الملاحظات انضباطا في تطبيق الشعرية اللسانية؛ فينبغي وصف البنى أولا، ثم بيان علاقاتها بالدلالة، ثم تقدير منزلتها داخل نسق النص، وأخيرا اختبار نتائج التحليل في ضوء الجنس الأدبي ومقام الخطاب وأفق التلقي. ويتحقق بذلك تمييز منهجي بين الوصف الذي تتيحه المقابلة اللسانية، وبين الحكم التأويلي الذي يحتاج إلى مسوغات تاريخية ونقدية أوسع.

وتظل دعوى هيمنة الوظيفة الشعرية حكما تفسيريا تتدرج درجات يقينه، ففي عينة محدودة من بيتين يمكن إثبات شبكة من العلاقات الشعرية، ثم اقتراح صلتها بمقام المدح؛ أما التراتب الوظيفي للقصيدة كلها فيحتاج إلى فحص امتداد هذه العلاقات وتفاعلها مع بنيتها الموضوعية والخطابية.

خاتمة:

أسفر البحث عن تحديد موقع الوظيفة الشعرية في نظرية التواصل عند ياكبسون بكونه يمثل موقعا تنظيميا يتصل بأولوية الرسالة في تراتب الوظائف. وقد تبين أن المهيمنة تضبط علاقات الصدارة والتبعية بين مكونات الأثر، وتتيح تفسير تقدم الوظيفة الشعرية في الخطاب الأدبي مع استمرار سائر الاتجاهات الوظيفية في العمل. وهذه النتيجة تجعل مفهوم المهيمنة أساسا لتعيين الموقع، وتفتح آفاق البحث في وسائل تحقق هذا الموقع لسانيا.

ويبين مبدأ إسقاط التكافؤ من محور الاختيار إلى محور التأليف الطريقة التي تصبح بها الوحدات متقابلة داخل نظام من التناسبات الصوتية والصرفية والتركيبية والدلالية. وقد بين التطبيق على مطلع المتنبي أثر التوازي المصحوب بإعادة ترتيب بعض المكونات، وتساند القرابة الجذرية والروي الميمي والتضاد في إنشاء معنى يجعل قدر الفعل تابعا لقدر صاحبه، وقدر الحكم تابعا لمنظور الناظر.

(١) Introduction: Toward Ethnographies of Communication: ١٣-٢٢.

وتنبه مناقشة شروط الاستدلال إلى أن وصف التوازي يحتاج إلى تفسير دوره داخل العمل الأدبي، وإلى تقدير ما يسنده مقام الخطاب من معاني وقيم. وتتحدد فائدة النموذج تبعا لدقة تطبيقه: فمنهج العلاقات اللسانية يمد القراءة بأدوات الوصف والمقارنة، وتوفر المعرفة بالسياق وبالأعراف الأدبية تعليل منزلة العلاقات المستخرجة في التجربة الشعرية.

وعلى هذا الأساس يدل الانتقال «من المهيمنة إلى مبدأ التكافؤ» على حركتين متكاملتين في البحث: تعيين الوظيفة التي تتقدم داخل الرسالة، ثم الكشف عن العلاقات التي تحقق صدارتها في بناء الخطاب. ويسمح هذا التمييز باستثمار شعرية ياكبسون في تحليل الشعر العربي ضمن دراسة تجمع إحكام الوصف اللساني وسلامة الاستدلال النقدي.

المصادر والمراجع

١. ديوان المتنبي بشرح العكبري، أبو الطيب المتنبي، شرح: أبو البقاء العكبري، ضبطه وصححه ووضع فهارسه مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ شلبي، دار المعرفة، بيروت، ط١، ١٩٧٨م.

2. Chapters from the History of Czech Functional Linguistics, "Standard Language and Poetic Language", Jan Mukařovský, edited by Jan Chovanec, Masaryk University, Brno, 1st ed., 2014, pp. 41–53.
3. Huit questions de poétique, Roman Jakobson, publié sous la direction de Tzvetan Todorov, Éditions du Seuil, Paris, 1977.
4. Introduction: Toward Ethnographies of Communication, Dell Hymes, American Anthropologist, Vol. 66, No. 6, Part 2 (The Ethnography of Communication), American Anthropological Association, 1964, pp. 1–34. https://doi.org/10.1525/aa.1964.66.suppl_3.02a00010.
5. Language in Literature, Roman Jakobson, edited by Krystyna Pomorska and Stephen Rudy, The Belknap Press of Harvard University Press, Cambridge, Massachusetts, 1987.
6. Questions de poétique, Roman Jakobson, publié sous la direction de Tzvetan Todorov, Éditions du Seuil, Paris, 1973.
7. Structuralist Poetics: Structuralism, Linguistics and the Study of Literature, Jonathan Culler, Cornell University Press, Ithaca, New York, 1975.
8. The Journals and Papers of Gerard Manley Hopkins, Gerard Manley Hopkins, edited by Humphry House, completed by Graham Storey, Oxford University Press, London, 1959.
9. The Poetic Function in the Theory of Roman Jakobson, Linda R. Waugh, Poetics Today, Vol. 2, No. 1a, Duke University Press, 1980, pp. 57–82. https://doi.org/10.2307/1772352.
10. Новейшая русская поэзия: Набросок первый. Виктор Хлебников, Роман Якобсон, Типография «Политика», Прага, 1921.

References

1. Chapters from the History of Czech Functional Linguistics, "Standard Language and Poetic Language", Jan Mukařovský, edited by Jan Chovanec, Masaryk University, Brno, 1st ed., 2014, pp. 41–53.
2. Dīwān al-Mutanabbī bi-sharḥ al-ʻUkbarī, Abū al-Ṭayyib al-Mutanabbī, sharḥ: Abū al-Baqāʾ al-ʻUkbarī, ḍabaṭahu wa-ṣaḥḥaḥahu wa-waḍaʻa fahārisahu Muṣṭafá al-Saqqā wa-Ibrāhīm al-Ibyārī wa-ʻAbd al-Ḥafīẓ Shalabī, Dār al-Maʻrifah, Bayrūt, ṭ. 1, 1978.
3. Huit questions de poétique, Roman Jakobson, publié sous la direction de Tzvetan Todorov, Éditions du Seuil, Paris, 1977.
4. Introduction: Toward Ethnographies of Communication, Dell Hymes, American Anthropologist, Vol. 66, No. 6, Part 2 (The Ethnography of Communication), American Anthropological Association, 1964, pp. 1–34. https://doi.org/10.1525/aa.1964.66.suppl_3.02a00010.
5. Language in Literature, Roman Jakobson, edited by Krystyna Pomorska and Stephen Rudy, The Belknap Press of Harvard University Press, Cambridge, Massachusetts, 1987.
6. Questions de poétique, Roman Jakobson, publié sous la direction de Tzvetan Todorov, Éditions du Seuil, Paris, 1973.
7. Structuralist Poetics: Structuralism, Linguistics and the Study of Literature, Jonathan Culler, Cornell University Press, Ithaca, New York, 1975.
8. The Journals and Papers of Gerard Manley Hopkins, Gerard Manley Hopkins, edited by Humphry House, completed by Graham Storey, Oxford University Press, London, 1959.
9. The Poetic Function in the Theory of Roman Jakobson, Linda R. Waugh, Poetics Today, Vol. 2, No. 1a, Duke University Press, 1980, pp. 57–82. https://doi.org/10.2307/1772352.
10. Новейшая русская поэзия: Набросок первый. Виктор Хлебников, Роман Якобсон, Типография «Политика», Прага, 1921.